

## التراث الفكري في غابر اليمن وحاضرها

للقاضي إسماعيل بن علي الأكوح

حظيت اليمن على مدى عصورها الإسلامية بوفرة إنتاجها العلمي، وتدقق عطائها الفكري، فلم يُؤثر على الإطلاق أن تخلف علماء اليمن المبرزون، أو جمداً على رأي مَنْ قبلهم، أو وقفوا عند فكرة معينة، بل كانوا يندفعون مُجددين ومُبدعين في شتى ميادين الفكر - ولا سيما علوم الاجتهاد-(<sup>١</sup>) ولم يفتهم فن من فنون الثقافة الإسلامية، ولا علم من علوم حضارتها إلا ركبوا مثنى، وخاضوا غبابه وأتوا بالعجب العجاب فأثروا بثمار عقولهم المكتبة العربية الإسلامية وأمدها بذخائر الفكر، وخلقوا ثروة طائلة من الأبحاث والمصنفات العديدة. ولم ينقطع نشاطهم الفكري حتى في الفترات العصيبة التي كانت اليمن خلالها تتعرض لمحن قاسية وحروب أهلية ضارية تعصف بأمنها واستقرارها، وتمزق أوصالها، وتأتي على الأخضر واليابس.

وقد تعددت مناحي تلك الأبحاث والمصنفات في الأدب واللغة وعلوم العربية والتشريع والعلوم الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والترجمة والفلك والطب بنوعيه والزراعة وغير ذلك، وتنوع بعضها بتنوع ألوان الحكم في اليمن، واتسعت بعضها بطابع المذاهب والعقائد،

---

(١) من أسس المذهب الزيدي فتح باب الاجتهاد والدعوة إليه لمن ملك وسائله من علوم العربية، وكان من أبرز علماء اليمن المجتهدين الذين لم يتقيدوا بأي مذهب من المذاهب الإسلامية المشهورة، نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣، ومحمد بن إبراهيم الوزير المتوفى ٨٤٠، والحسن بن أحمد الجلال المتوفى سنة ١٠٨٤، وصالح بن مهدي المقبل المتوفى بمكة سنة ١١٠٨، ومحمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢، ومحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠.

فكان لكل مذهب مؤلفاً، ولكل عقيدة مصنفاتها؛ فكان هناك كتب أهل السنة، وكتب الزيدية بفروعها<sup>(٢)</sup> وكتب الشافعية، وكتب الحنفية، كما كان هناك أيضاً كتب الإسماعيلية (الباطنية).

ثم ظهر الاعتزال في اليمن في المائة السادسة حينما قَدِم إليها زيد بن الحسن بن علي البيهقي البروقاني سنة (٤٥٠)<sup>(٣)</sup> بتكليف من الشريف علي بن عيسى بن حمزة السُلَيْماني<sup>(٤)</sup> رئيس العلماء بمكة في عصره - وكان زيد المذهب - لما بلغه من انتشار المُطرفية في اليمن فعهد إلى البيهقي بالمسير إلى اليمن ليصدّ أهل اليمن عن اعتناق هذا المذهب الذي كان قد انتشر في اليمن الأعلى، فقَدِم كما ورد في ترجمته - ومعه كتب غريبة وعلوم عجيبة، فنزل بصعدة فأقام بها سنتين ونصف السنة يدرّس وينشر الاعتزال، ثم ذهب إلى هجرة مَحَنَكَة<sup>(٥)</sup> حيث كان يوجد بها الإمام أحمد بن سليمان المتوفى سنة ٥٦٦ فأخذ عنه الإمام وشاركه في ذلك القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام المتوفى سنة ٥٧٢. ثم رحل القاضي جعفر إلى العراق فوجد مذهب المعتزلة منتشراً هناك، ووجد من بقي فيه من الزيدية قد تحولوا إلى الاعتزال فأخذ عنهم، ثم عاد إلى اليمن ومعه كتب كثيرة.

---

(٢) الهادوية والمطرفية والحُسَيْنِيَّة.

(٣) نسبة إلى بروقن: قرية من نواحي بلخ من خراسان. وكان عالماً من علماء زيدية الجيل والديلم.

(٤) وهو الذي أهدى إليه جار الله الزمخشري تفسير الكشاف المشهور في صدر مقدمة الكتاب.

(٥) مَحَنَكَة: بلدة صغيرة في بلاد خولان بن عمرو بالقرب من حَيْدَان، وكانت إحدى هَجَر العلم المنتشرة في اليمن. ولنا كتاب عن الهَجَر في أربع مجلدات سيصدر قريباً إن شاء الله.

وكان اهتمام الإمام المنصور عبدالله بن حمزة المتوفى سنة ٦١٤ بالاعتزال لا حدود له، فقد بذل جهوداً كبيرة في الحصول على كتب المعتزلة وبعث علماء إلى خارج اليمن ليقتنوا له كتبها شراءً واستنساخاً فجمعت مكتبته<sup>(٦)</sup> منها ومن غيرها عدداً كثيراً حتى صارت من أغنى المكتبات في اليمن.

وقد انتشر الاعتزال عند علماء الزيدية فكانوا هادوية في الفروع، معتزلة في الأصول، إلا في مسألة الإمام فقد خالفوا المعتزلة<sup>(٧)</sup>، كما أن المجتهدين من علماء الزيدية الذين تحرروا من المذهب وعملوا بالكتاب وصحيح السنة قد وقفوا من الاعتزال موقفاً معارضاً، وكان على رأس هؤلاء العلامة المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير ومن قبله العلامة حميدان القاسمي من أعلام المائة السابعة الذي وقف موقفاً معارضاً للاعتزال، وله مؤلفات في ذلك.

كان في اليمن عدد كثير من خزائن الكتب، وكان أحفلها بذخائر الكتب ونفائسها خزائن الملوك والأئمة والأمراء، لما لهم من اهتمام كبير في جمع الكتب واقتنائها والاستكثار منها كما هي عاداتهم في كل زمان ومكان؛ وكان أشهر تلك الخزائن خزانة السلطان الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي ابن رسول المتوفى سنة ٧٢١ إذ كانت تحتوي على مائة ألف مجلد - كما يقول الياضي في مرآة الجنان، والدميري في حياة الحيوان - فقد كان يهوى جمع الكتب والتحف فكانت تحمل إليه من كل جهة، وكان عنده مع ذلك أكثر من عشرة

---

(٦) الإمامة عند الزيدية محصورة في أولاد الحسنين وعند المعتزلة في الأعلم والأئقي من المسلمين.

(٧) كانت مكتبته في هجرة ظفار ذيبين: مقر سلطان ودار ملكه. وقد تفرق كثير منها بمرور الأيام وبقي منها بقية صالحة نقلها الإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين المتوفى سنة ١٣٦٧ إلى جامع صنعاء كما سيأتي بيان ذلك قريباً.

نساخين ينسخون الكتب وترفع إلى خزينته بعد مقابلتها. ولما أهدى إليه كتاب الأغاني بخط ياقوت الحموي أجاز المهدي مائتي دينار مصرية، وقيل مائة ألف كما ذكر ذلك أبو الفدى في تاريخه.

ومن المكتبات الشهيرة مكتبة الإمام المنصور القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ ومكتبات أولاده وأحفاده لأنهم كانوا علماء مبرزين فاجتمع لهم بحكم علمهم وإمارتهم من نفائس المخطوطات ونوادرها ما لم يجتمع لغيرهم.

وكانت مكتبة عمر بن علي بن محمد بن أبي بكر العلوي المتوفى سنة ٧٠٣ من المكتبات الشهيرة في زبيد، فقد كان فيها كما يقال خمسمائة ديوان<sup>(٨)</sup> من الشعر كما ورد في ترجمته. وورد في ترجمة الأمير عبدالله بن العباس الحجاجي المتوفى سنة بضع وسبعين وستمائة بأنه جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه حتى قيل: إن خزائنه في مدينة الجند جمعت أكثر من خمسة آلاف كتاب. وورد في ترجمة جمال الدين الريمي المتوفى سنة ٧٩١ بأن مكتبته كانت تضم ألفي كتاب.

وهناك كتب كثيرة موقوفة على الجوامع والمساجد فتوجد مكتبة في جامع صنعاء، ومكتبة في جامع زبيد ومكتبة في مسجد الأشاعر بزبيد أيضاً، ومكتبة في جامع المظفر بتعز، ومكتبة في جامع الإمام الهادي بصعدة، ومكتبة في المدرسة الشمسية بذار، ومكتبة في جامع ذي جبلة، ومكتبة في جامع إب، ومكتبة في جامع شهارة، ومكتبة في جامع هجرة ظفير حجة، ومكتبة في جامع ضوران، ومكتبة في جامع الروضة ومكتبة في قبة طلحة بصنعاء، ومكتبة في قبة المهدي العباسي بصنعاء، وجميع هذه المكتبات هي من أوقاف العلماء والفضلاء والأئمة والملوك والأمراء، ولكنها قد

---

(٨) العقود اللؤلؤية ٣٥٦/١ وانظر ترجمته في كتابي (المدارس الإسلامية في اليمن)، ١٤٨.

تناقصت وفُقد أكثرها، ولم يبق في بعض هذه المكتبات إلا النزر اليسير، وفي بعضها لم يعد لها أثر. ويعود السبب إلى أن المستعيرين للكاتب من هذه المكتبات كان أكثرهم لا يرجع ما استعاره - كما حدث في مكتبة المدرسة الشمسية في دمار، فقد سمعتُ من والدي رحمه الله أن كثيراً من شيوخ العلم بها وذكر أسماء بعضهم كانوا يستعرون الكتب وتبقى لديهم بعذر أنهم محتاجون إليها لتدريس طلابهم فلا يرجع من تلك الكتب إلا ما ندر.

ومن أسباب فقدانها الإهمال والضياع وسرقة ما أمكن، وتهاون حُفّاظ بعض تلك المكتبات في الحرص عليها فكانوا إذا أعوزتهم الحاجة باعوا منها ما أمكن. وقد وجدتُ بعضاً من هذه الكتب معروضة للبيع وهي في الأصل من وقف بعض المساجد وأخذتها واحتفظت بها في المكتبة الغربية بجامع صنعاء.

وقد تعرضت مكتبة جامع الإمام الهادي بصعدة لنهب معظم محتوياتها حينما كانت تحترق القوات الملكية والقوات الجمهورية للاستيلاء على صعدة، وحدث الشيء نفسه لمكتبة ظفير حجة، ولا أعرف بالتحديد ما كان يوجد في تلك المكتبات كلها إلا أنه يوجد فيما بقي من مكتبة جامع الهادي بصعدة بعض أجزاء من التبيان في أحكام القرآن<sup>(٩)</sup> لنشوان بن سعيد الحميري وهو من الكتب النادرة<sup>(١٠)</sup>، ويوجد كذلك ضياء العلوم لمحمد بن نشوان الحميري مختصر من شمس العلوم في اللغة، ويوجد فيها أيضاً نظام الغريب. ويوجد فيما تبقى من مكتبة جامع تعز، وهي من أوقاف ملوك بني رسول، شرح المفصل للزمخشري منسوخ في المائة السابعة في

---

(٩) نَهَجَ في تفسيره طريقة خاصة فهو يأتي بالآية ثم يرد فيها بالقراءات ثم اللغة ثم أسباب النزول ثم النظم وهو ارتباط الآية بما قبلها ثم المعنى فالأحكام.

(١٠) يوجد بعض أجزاء منه في مكتبة الامبروزيانا في ميلانو بإيطاليا.

عصر المؤلف، والاكمال لابن ماکولا المتوفى سنة ٤٨٦ (الجزء الرابع)، وديوان الأدب لإسحق بن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ (الجزء الأول) بخط نفيس، وبعض أجزاء من البيان في فقه الشافعية ليحيى بن أبي الخير العمراني المتوفى سنة ٥٥٨ وأجزاء من التفقيه شرح التنبيه (لأبي إسحق الشيرازي) تأليف جمال الدين الرّيمي.

ويوجد في جامع الروضة نحو أربعمئة مجلدة منها نسخة أثرية من شمس العلوم لنشوان الحميري، ويوجد في قبة طلحة بصنعاء مجموعة من الكتب النادرة تبلغ خمسمئة مجلدة، وهي من وقف بانيها الإمام المهدي عبدالله بن المتوكل أحمد المتوفى سنة ١٢٥١، وهي مما اقتناها وورثها عن والده الذي يقال إنه كان في خزانته آلاف الكتب. وفي هذه المكتبة مجموعة من المصاحف الأثرية المذهبة بعضها بخط ياقوت المُستعصي.

على أن أثنى هذه المكتبات هي مكتبة الأوقاف بجامع صنعاء وهي مجموعة من وقف الحاج سعيد بن علي البواب الحاشدي، ووقف القاضي محمد بن قيس ووقف الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم، ومن وقف النقيب الماس وبها كتب كثيرة من مكتبة آل الوزير، فقد ذكر العلامة يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم في كتابه (طبقات الزيدية) في ترجمة صلاح بن أحمد بن عبدالله الوزير ما لفظه: ولهم خزانة كتب جمعوها ما زال اللاحق يجمع إلى ما جمعه الأول حتى اجتمعت كتب كثيرة، ثم ما زالت إلى زماننا هذا، وذكر لي بعض أولادهم أن الباقي منها مائة مجلد من أعيانها: الديباج للقاضي عبدالله الدوّاري، والمحجة البيضاء لعبدالله بن زيد، وجامع آل محمد ست مجلدات، وجامع المسانيد لابن الجوزي في الحديث، والمنهاج الجلي في مذهب زيد بن علي ثلاثة مجلدات،

وهي نسخة فُرِّت على المصنف، وكتاب ضياء العلوم في اللغة مجلدات، وكتاب تهذيب الحاكم ثمانية مجلدات، والأطراف للمزي في الحديث، والعواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القام للسيد محمد بن إبراهيم الوزير في أربعة مجلدات، وتفسير الهادي، وشرح المنتهى الكبير، وجزء كبير من تاريخ الخطيب في الحديث والتراجم، وتاريخ مسلم اللجي، وسيرة علي بن صلاح في جزأين، وجزء من سيرة والده صلاح الدين وغير ذلك من الكتب ثم قال:

وفي هذا الوقت طلب آل الوزير قسمتها بينهم وتصرفوا فيها وتفرقت بعد أن كانت مجتمعة، وذكر لي بعض أولادهم أنها كانت في بيان بخط آبائهم قدر تسعمائة كتاب ورأيت البيان كذلك، فلم يبق منها إلا القدر المذكور. نعم، وبعد قسمتها وتفرقتها كما ذكر، أمر الإمام المتوكل على الله إسماعيل - رضوان الله عليه - بجمعها كما كانت مجموعة فجمع منها بعضها مما أمكن جمعها، وجعلت في خزانة في غربي مؤخر جامع صنعاء وهي فيه الآن، ولم يبق للسادة (بيت الوزير) فيها تصرف<sup>(١١)</sup>.

وقد أمر الإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين ببناء خزانة في الجامع الكبير لهذه الكتب الموقوفة وتم بناؤها سنة ١٣٤٤ وجمع إليها الكتب الموقوفة ثم أضاف إليها ما بقي من خزانة الإمام عبدالله ابن حمزة في هجرة ظفار ذيبين، كما ضم إليها ما بقي من كتب الأمير محمد ابن الحسن بن الإمام القاسم الموقوفة على ذريته بعد أن قلَّ المنتفع منهم بها وغير ذلك من الكتب الموقوفة، ثم نقل إليها المصحف الكوفي المكتوب على الرق من مسجد الشَّهيدَيْن بصنعاء بعد أن ذهب من آخره عدة أجزاء وهو من أقدم المصاحف في العالم، ويظهر أن أحد سَدَنَة مسجد الشَّهيدَيْن قد نزع بعض أوراقه

---

(١١) معظم هذه الكتب لم يعد لها وجود.

وباعها لهواة المخطوطات مع أن هذا المصحف كان كاملاً إلى ما قبل نحو ثمانين سنة، فقد ذكر القاضي العلامة المؤرخ محمد بن أحمد الحجري - رحمه الله - في مقدمة فهرسته لهذه المكتبة ما يلي: "وقد أخبر جماعة من علماء العصر ممن كان شاهد هذا المصحف وقرأه أنه كان كاملاً وأنهم شاهدوا في ختامه ما لفظه (وكتبه علي بن أبو طالب) وممن أخبر بهذا القاضي العلامة محمد بن عبدالله الجنداري أنه شاهد هذا سنة ١٣١٢. وأخبر السيد العلامة علي بن حسين الشامي عن شيخه صفي أحمد بن عبدالله الجنداري بمثل ما تقدم، وروى القاضي العلامة الصفي أحمد بن أحمد الجرافي عن شيخه العلامة علي بن حسين المغربي بنحو هذا وزاد أنه كان يجنب اسم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ما لفظه: "وزيد بن ثابت". وأوقف عليها الإمام يحيى مجموعة ثمينة ونفيسة من المخطوطات<sup>(١٢)</sup> كما أوقف عليها مكتبة ابنه الأمير سيف الإسلام محمد البدر الذي مات غرقاً في البحر في آخر سنة ١٣٥٠. ويقدر عددها في هذه الخزانة بنحو خمسة آلاف كتاب مخطوط<sup>(١٣)</sup> ويوجد فيها من نوادير المخطوطات ما لا يوجد في غيرها ففيها مثلاً ديوان ذى الرمة مكتوب بالخط الكوفي من المائة الثالثة، وكذلك الكتاب لسبويه الجزء الرابع والثامن من القرن الثالث، ويوجد بها كتاب المغني في أصول الدين للقاضي عبدالجبار بن أحمد

---

(١٢) ولعلها هي الكتب التي استخرجها من شهارة. فقد ذكر القاضي أحمد بن عبدالله الجنداري في كتابه الجامع الوجيز في ترجمة لطف الله بن محمد بن الغياث المتوفى بظفير حجة سنة ١٠٣٥ ما لفظه أن كتب السيد محمد الولي التي نقلت من الطائف إلى جدة جعل أمر ولايتها إلى الشيخ لطف الله بن الغياث وعددها أربع عشرة مجلدة ثم عهد بها إلى تلميذه الأمير الحسين بن الإمام القاسم بن محمد ونقلت إلى شهارة ثم قال الجنداري: وقد ذهب أكثرها وبقي بقية في شهارة استخرجها سيف الإسلام يحيى (الإمام يحيى) بن المنصور.

(١٣) سنبدأ بفهرستها في مطلع العام ١٤٠٢ - (١٩٨٢) إن شاء الله.



شيخ المعتزلة المتوفي سنة ٤١٥، وهو مما نقل من مكتبة الإمام عبدالله بن حمزة، والموجود منه المجلد الأول والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر والسادس عشر والعشرون. وبلي الجزء الأخير (الجواب الحاسم المُغني لشُبّه المُغني) للعلامة محمد بن أحمد بن علي بن الوليد من أعلام المائة السادسة، وقد ناقض فيه القاضي عبدالجبار فيما خالف فيها الزيدية في مسألة الإمامة وقد كتب برسم مكتبة الإمام عبدالله بن حمزة. وقد صورته بعثة جامعة فؤاد (جامعة القاهرة) فيما صورته سنة ١٩٥٢ ونشر الموجود منه في مصر تحت إشراف الدكتور طه حسين.

ويوجد بها القاموس المحيط بخط جميل جداً، وهو محبوب بالذهب، ويوجد بها الاسعاف شرح شواهد الكشاف للشيخ خضر بن عطا الله الموصلني أكمل تأليفه سنة ١٠٠٣ وهو تاريخ نسخ الكتاب وتقع في مجلدين بخط جميل مزخرف بالذهب.

وفي هذه المكتبة عدد كثير من الكتب بخط مؤلفيها مثل الإيجاز في علوم الإعجاز وكذلك الانتصار وكلاهما للإمام يحيى بن حمزة المتوفى سنة ٧٤٩ والفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار وتحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين، وويل الغمام على شفاء الاوام، والسييل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار وجميعها لشيخ الاعلام محمد بن علي الشوكاني، وبها بعض أجزاء من فتح الباري بخط مؤلفه الحافظ بن حجر، وتراجم آل الوزير بخط مؤلفه الهادي ابن إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٢٢، كما يوجد بها رسائل بخط البدر محمد بن إسماعيل الأمير والحسن بن أحمد الحلال ويحيى بن الحسن بن الإمام القاسم بن الحسين المتوفى سنة ١١٠٠ وغيرهم.

ويوجد في الجامع الكبير مصاحف نادرة مذهبة في غاية من جمال الخط وإتقانه، كما وجدنا في الخزائن العلوية في سطح الجامع مجموعات كثيرة من المصاحف النادرة المكتوبة بالخط الكوفي على الرق وتقدر بأكثر من خمسة عشر كيساً عدا ما فُقد منها نتيجة الإهمال والضياع.

وتوجد بجامع صنعاء مكتبة أخرى تعرف بالمكتبة الغربية وهي تحتوي على مكتبة الإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين وقد نقلتها من قصره (دار السعادة) إلى الجامع الكبير منذ بضع سنين، ثم مكتبة الإمام أحمد بن الإمام يحيى وقد كانت في قصره (بستان الخير) بصنعاء ثم أضفنا إليها مكتبة في قصر (سعدان) بمدينة حجة بعد أن تم نقلها سنة ١٣٩٧ (١٩٧٧). ويوجد أيضاً بعض المخطوطات التي كانت في قصور الأمراء. كما تم نقل مخطوطات مكتبة المدرسة العلمية بصنعاء التي أنشأها الإمام يحيى سنة ١٣٤٤ إلى المكتبة الغربية. ويوجد بها أيضاً مكتبة آل الوزير<sup>(١٤)</sup> المتأخرين وقد صادرها الإمام أحمد من قصورهم سنة ١٩٦٧ في أعقاب استيلائه على صنعاء واستعادته الحكم منهم.

كما أن بها مكتبة شيخنا العلامة ثابت بن سعد بهران وقد أوقفها على هذه المكتبة وفيها مجموعة كثيرة من المخطوطات وجلّها من المطبوعات. ثم ألحقنا بها ما تمّ شراؤه من المخطوطات ويقدر بنحو ألف وخمسمائة مجلدة ورسالة. وتحتوي مكتبة الإمام يحيى على نفائس الكتب ونوادرها، فهي غنية بالمخطوطات الفريدة التي لا نظير لها في المكتبات الأخرى، فمنها سير أعلام النبلاء للذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي المتوفى سنة ٧٣٠ والمسجد المسبوك والزبرجد المحوك لعلي بن الحسن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢، وكذلك طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن له أيضاً وغير ذلك من النوادر.

---

(١٤) الإمام عبدالله بن أحمد الوزير والأمير علي بن عبدالله الوزير.

وقد تمت فهرسة قسم كبير من المخطوطات بالتعاون مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، وقامت الهيئة العامة للآثار ودور الكتب بطبعه ونشره ويقع في ألف صفحة ويشمل ١٩٧٨ مجلدة وهي تحتوي على (٤٢٣٦) موضوعاً منها (٢٧٥٢) مدخل عنوان مستقل و(١٤٨٤) مدخل عنوان متكرر. وقد شمل المواضيع التالية: التفسير والقراءات والحديث والسيرة وعلم الكلام والفقهاء وأصول الفقه الفرائض - وقد استأثرت هذه العلوم بمعظم ما في المكتبة - ثم المعارف العامة والأدب والتاريخ والمنطق والعلوم الاجتماعية والعلوم الخفية واللغة والجغرافيا والبلاغة والنحو والصرف والعروض والقوافي والرياضيات والفلك والطب والطب البيطري والزراعة.

ونعمل الآن على إكمال فهرس بقية ما لم يفهرس من هذه المكتبة ثم مكتبة الأوقاف إن شاء الله.

توجد مكتبات خاصة كثيرة في كثير من المدن وهجر العلم في اليمن لا نعرف عن محتوياتها إلا ما ندر بالسماع وأحياناً بالمشاهدة.

ففي صنعاء مثلاً أكثر من أربعين مكتبة وفي كل من الروضة وزمار ورداع ويريم وأبّ وتعز وذي جبلة، وزبيد وبيت الفقيه والتّحيا والمراوغة والمُنيرة والزَيْديّة وحبّة وصعدة وحوث وشهارة وهجر والأهنوم مثل المدان ومعمرة والعُنسُق وعلمان، وكذلك حَبور والمديرة والسُوْدَة والكَيْس وإريان والذَّاري وذيبيّن وخَمِر وثُلاء وشبام وكوكبان والطويلة ومناخة وعِرّ الحيمة وغيرها من المدن والهجر عدد كبير من المكتبات المشهورة وسأذكرها بالتفصيل في بحث قادم إن شاء الله تعالى.

وما يوجد في هذه المكتبات الخاصة ومكتبات الأوقاف ومكتبتي الجامع الكبير لا يمثل إلا القليل مما كان يوجد في اليمن من تراثها المشهور فقد فُقدت

آلاف الخطوط، منها ما ذهب ضحية إغارة القبائل على المدن لا سيما صنعاء وصعدة حيث كانوا يتلفون كثيراً منها حرقاً وتمزيقاً، وما سَلِمَ منها يَفْقَدُ أحياناً العنوان واسم المؤلف فيصبح مجهول الاسم والنسب. وكان آخر مرة تعرضت صنعاء فيها لمثل هذا الزحف القبلي العام سنة ١٣٦٧ (١٩٤٨) حينما تولى الإمام عبدالله بن أحمد الوزير الحكم في أعقاب مقتل الإمام يحيى، فحرض الإمام أحمد حميد الدين المتوفى سنة ١٣٨٢ (١٩٦٢) القبائل على دخول صنعاء حتى يتمكنوا من أخذ الثأر من قتلة والده فتدافعت القبائل بأسلحتها ومعاولها وما بها الحرص على نصر حق وازهاق باطل أو إقامة إمام وإسقاط إمام آخر بقدر ما كانت الأطماع تحركها لنهب بيوت صنعاء والاستيلاء عليها وعلى ما بها من كنوز وتُحَفَ وأموال فاقتحمت الأسوار، ودخلت البيوت ونهبت ما فيها واقتلعت الأبواب والنوافذ، ودمرت وأفسدت، خلال ثلاثة أيام، حضارة مئات السنين ولم تَسَلَمْ إلا قلة من البيوت، منها بيوت آل حميد الدين وأصهارهم وأنصارهم وبعض بيوت استطاع أهلها حمايتها والدفاع عنها بالمال.

وربما كان أشد عوامل التلف والتدمير للكتب ما كان يقوم به الحكام من إتلاف كتب مخالفة في العقيدة أو المذهب، كما حدث للفرقة المطرفية فقد قضى عليها الإمام المنصور عبدالله بن حمزة وقضى على تراثها، مع أن المطرفية هم من الزيدية، ولكنهم خالفوها في مسائل فكفروهم بالإلزام، فعلماء التطريف مثلاً يرون في الإمامة أنها تصلح في الأتقى والأعلم كالمعتزلة.

وكما حدث لكثير من تراث الشافعية في زبيد ونواحيها فقد قضى عليه علي ابن مهدي الزعيني سنة (٥٥٤) بعد أن ولي الحكم في زبيد ونواحيها وقتل كثيراً من علماء الشافعية لأنه كان حنفي المذهب ثم جاء أولاده بعده فقتلوا علماء الشافعية في الجند ونواحيه.

وكذلك فإنَّ إهمال الكتب وتركها من دون استعمال يعرضها للتلف كما حدث ويحدث لآلاف الكتب التي أتلفتها الرطوبة والأرضة وغيرهما من سائر الآفات المسلّطة على الكتب لا سيما في زبيد والمناطق الحارّة الأخرى، فإنَّ التلف يُسرّع إليها إذا لم تُستعمل أو يُحافظ عليها باستمرار.

وهناك كثير من تراث اليمن قد تسرب إلى أقطار أخرى مما نهب من أصحابه أو اشترى من ورثة أصحابها إذا كانوا جهلة أو كانوا محتاجين. فكثيراً ما كانت تتعرض صنعاء والمدن الأخرى لحصار القبائل فتشتد الحاجة بالسكان وتتقطع عنهم موارد الرزق فيتدافعون لإنقاذ أنفسهم من الموت ببيع ما تحت أيديهم من كتب وتحف ونحوهما مستشهدين بقول الشاعر:

وقد تُخرج الحاجات يا أمّ مالك      حوائج من رب بهن ضنين

وكان أشد حصار عرفته صنعاء في هذا القرن هو حصار سنة ١٣٢١ (١٩٠٣) حينما حاصرتها قوات الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين المتوفى سنة ١٣٢٢ لأنّه كان فيها حامية عثمانية فنال الناس في صنعاء من ذلك الحصار بلاء ومجاعة شديدة فمات فيها من مات من الجوع والأمراض واستفدى القادرون حياتهم بنفائس ما كان معهم.

وقد اشترى بعض موظفي الدولة العثمانية في اليمن كتباً كثيرة ومنهم المستشار حسني باشا الذي كان مستشار الوالي العثماني حسين حلمي باشا الذي قدم إلى اليمن سنة ١٣١٦ (١٨٩٨) فقد اشترى كتباً كثيرة منها كتاب (العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) بخط مؤلفه محمد بن إبراهيم الوزير، باعها له محمد بن عبدالله ابن الإمام محمد بن عبدالله الوزير، وقد نقلوها إلى بلادهم فأنتهى أكثرها إلى المكتبات

الكثيرة الشهيرة في تركيا، ففي مكتبة علي أميري بإصطنبول مثلاً نحو ثلاثة آلاف مخطوط من اليمن، وبعض الكتب التي كانت تنقل إلى إصطنبول كانت تباع لتجار الكتب من الغرب، وقد رأيت عدداً من المخطوطات اليمانية في مكتبة ليدن جاءت بالشراء - كما يقول حافظ المكتبة - من إصطنبول.

وكان يوجد في اليمن تاجر إيطالي اسمه (جوزيف كابروتني) أقام بها ثلاث سنوات (١٣٢٨ - ١٣٣٢)، (١٩١٠-١٩١٣) وكان له دكان بسوق الملح بصنعاء حصل على نحو (١٦١٠) مخطوط نقلها إلى إيطاليا وأهديت سنة (١٣٣٧) ١٩١٩ إلى مكتبة الأمير وزيانا في ميلانو بمناسبة مرور ثلاثمائة سنة على إنشائها وكان بهذه المكتبة من قبل قرابة منثي مخطوطة جاءت من اليمن وأهديت إليها سنة ١٣٣٢ (١٩١٤). وسمعت أن التاجر أحمد راوية من ذمار كان كلما ذهب إلى الحديدية حمل معه أكياساً من المخطوطات لبيعها هنالك ومنها تحمل إلى خارج اليمن وكان يشتري التاجر راوية الكتب من أصحابها في ذمار بالجملة. وحصل العالم الإيطالي (أنسلدي) خلال وجوده في اليمن من سنة (١٩٢٩ - ١٩٣٢) على مجموعة من الكتب، كما حصل العالم المستشرق الإيطالي روسي حينما كان في اليمن من سنة (١٩٣٧-١٩٣٨) على (٥٥) مخطوطة وقد آلت هذه المجموعات إلى مؤسسة كيتاني التي انتقلت إلى الأكاديمية الأهلية بروما.

وكان الرحالة الألماني المشهور كارستن نيبور قد تمكن من الحصول على مجموعة نفيسة من المخطوطات حينما جاء إلى اليمن (١٧٦١-١٧٦٧) وهي الآن في المكتبة الملكية في كوبنهاجن العاصمة الدنمركية، وقد رأيت منها بعض المخطوطات حينما كنت في الدنمرك في شهر أيلول سنة ١٩٧٩م مدعواً من الحكومة الدنمركية. وحصل إدوارد غلازر المستشرق النمساوي خلال رحلاته

الأربع إلى اليمن فيما بين (١٨٨٢-١٨٩٢) على (٢٥٠) مخطوطة اشترتها مكتبة فينا ومكتبة برلين والمكتبة الوطنية في باريس.

ويوجد كثير من المخطوطات اليمنية في المتحف البريطاني وفي مكتبة كمبريدج وبودلين في أكسفورد، ولا تخلو مكتبة من مكتبات جامعات أوروبا وأمريكا الشهيرة من كتب خطية جاءت من اليمن، وفي مكتبة الكونغرس في واشنطن بعض المخطوطات اليمنية رأيت منها (البرهان في معرفة عقائد الإيمان) لعباس بن منصور بن عباس البريهي.

وقد حصل الشيخ محمد بن عبدالرحمن العبيكان على (٢٢٦) مخطوط يمني حينما كان سفيراً للمملكة العربية السعودية في اليمن في العهد الملكي وقد نشر لها فهرساً خاصاً سنة ١٣٩٠.

وثمة كتب أخرى يمانية متفرقة في أنحاء العالم العربي وغيره لا يمكن حصرها.